مجلة الإحياء، المجلد 26، العدد: 39، جويلية 2026، ص - ص: 559-570
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

استراتيجيات التعلّم عند الزرنوجي في كتاب:
تعليم المتعلّم طريق التعلّم

Learning Strategies According al-Zarnuji in the Book :
Ta'lim al-Muta'allim Tariq al-Ta'allum

د/ هدى بن الزبير
Houda BENZOUBIR
المدرسة العليا للأساتذة طالب عبد الرحمن - الأغواط
h.benzzoubir@ens-lagh.dz

تاريخ الإرسال: 2026/05/04 تاريخ القبول: 2026/07/16

الملخص:
تُعدّ استراتيجيات التعلّم من أبرز القضايا التربوية في العصر الحديث، لما لها من أهمية في تطوير العملية التعليمية وتحسين أساليب اكتساب المعرفة. ويهدف هذا البحث إلى إبراز جذور هذه الاستراتيجيات في التراث العربي الإسلامي القديم، من خلال الوقوف على أهم الأسس التي قام عليها التعليم في التراث التربوي العربي، مع التركيز على كتاب "تعليم المتعلم طريق التعلم" لـبرهان الدين الزرنوجي، الذي ألّف في القرن السادس الهجري ويُعدّ من أهم المؤلفات الموجّهة للحركة التعليمية الناشئة آنذاك، وقد اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي من خلال وصف المفاهيم التربوية وتحليل مضامينها واستخلاص أهم الاستراتيجيات التعليمية التي تضمّنها الكتاب.
الكلمات المفتاحية: الاستراتيجيات؛ التعلم؛ التعليم؛ كتاب الزرنوجي.

Abstract:
Learning strategies are considered among the most prominent educational issues in the modern era due to their significant role in developing the educational process and improving methods of knowledge acquisition. This research aims to highlight the roots of these strategies in the ancient Arab-Islamic heritage by examining the main foundations upon which education was based in classical Arab educational thought, with a particular focus on the book Ta'lim al-Muta'allim Tariq al-Ta'allum by Burhan al-Din al-Zarnuji. Written in the sixth century Hijri, this work is regarded as one of the most important books guiding the emerging educational movement of that period. The study adopted the descriptive-analytical approach through describing educational concepts, analyzing their content, and identifying the most important learning strategies presented in the book.
Key words: Strategies; learning; education; the book Al-Zarnoji.

مقدّمة:

تعدّ استراتيجيات التعلّم من أبرز القضايا التي تحظى بأهمية كبيرة في عصرنا الحاضر، إذ تمثّل مجموعة من الأساليب المتنوّعة التي تهدف إلى تيسير عملية التعلّم لدى الطلبة، ومساعدتهم على تحقيق النجاح والتميز، غير أنّ هذه الاستراتيجيات ليست وليدة العصر الحديث فحسب، بل تمتد جذورها إلى تراثنا العربي القديم، ويتجلّى ذلك بوضوح في كتاب: "تعليم المتعلّم طريق التعلّم" لمؤلّفه برهان الإسلام الزرنوجي، الذي يُعدّ من الكتب القيّمة والغنية ببيان أساليب التعليم والتعلّم، والتي يمكن اعتبارها نواة لما يُعرف اليوم باستراتيجيات التعلّم الحديثة، ومن اللافت وجود تقارب كبير وتقاطعات واضحة بين ما ورد في هذا الكتاب وبين الاستراتيجيات المعاصرة.

وانطلاقًا من هذه الأهمية البالغة التي يكتسبها موضوع الاستراتيجيات في عصرنا، يبرز إشكال جوهري يتمثّل في التساؤل: هل تضمّن تراثنا العربي القديم إشارات واضحة إلى مفهوم الاستراتيجيات؟ وما أبرز الأسس والاستراتيجيات التي قام عليها التعليم في ذلك التراث، من خلال كتاب "تعليم المتعلّم طريق التعلّم" للزرنوجي؟

وللإجابة عن هذا الإشكال، يصبح من الضروري العودة إلى بدايات نشأة المدارس والمعاهد التعليمية، واستقراء المؤلّفات التي تناولت العلم والتعلّم في التراث العربي القديم، للكشف عمّا تحمله من تصوّرات وأساليب تعليمية رائدة.

أولا: تاريخ التعليم والمدارس عند العرب

إنّ ظهور الإسلام أحدث نقلة واسعة في الجزيرة العربية حيث غير في العديد من نواحي الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية والفكرية "غير أن ذلك لا يعني انعدام وجود أي تراث ثقافي عند العرب قبل مولد الرسول صلى الله عليه وسلم... وقد ظن البعض أن كلمة جاهلية مشتقة من الجهل عكس العلم أو المعرفة وكان الأحرى أن تعني التصرفات الفضة والطقوس الوثنية والتقاليد القبلية القائمة على العزة بالتعصب الأعمى والثأر.... وإلى ذلك من الأمور التي استنكرها الإسلام"[1].

ولعل أول ما ساعد على العلم والتعلم هو بناء المساجد التي كان لها دورا مهما في حياة المسلمين منذ البداية فكانت مقرا للصلة والتعبد وساحات للعلم والتعلم.

هذا ويعد العصر العباسي أزهى العصور وأكثرها تطورا وتقدما حيث "نهض التعليم حينئذ نهضة واسعة"[2]، حيث "جرى احتكاك العقل العربي بمدنيات البلاد التي امتد سلطانها... إلى مختلف أنحاء البلاد أقنية سخية من مدارس كبرى تنصب في الإسكندرية وجنديسابور وحران ونصيبين والرها"[3].

وكل هذه المدن التي ذكرت قد اشتهرت بالعلم والفلسفة والأدب ومعاهدها وعلمائها وفلاسفتها ومدارسها.

فلم تكن الكتب والمساجد وحدها من أدى إلى الازدهار بل كانت كذلك مجالس الخلفاء والوزراء والعلماء من هيأ للحركة العلمية منها مناظرة الكسائي الكوفي واليزيدي البصري بين يدي الخليفة المهدي[4]، كما كان الخلفاء يثمنون العلم والعلماء ويمدونهم بالمال على علمهم وأدبهم.

كما لا ننسى "منازل العلماء التي لعبت دورا كبيرا في نشر العلم وتوسيع التعليم، وكان بعض العلماء يعملون في الأسواق لكسب معاشهم وكانوا يستقبلون طلابهم في دكاكينهم التي هي أيضا كانت ملتقى للعلماء حيث كانوا يتباحثون في مختلف المواضيع"[5].

وفي القرنين الأخيرين من الدولة العباسية، امتاز عصرها بانتشار المدارس، من أشهرها المدرسة النظامية في بغداد نسبة لوزير ملك الشاه السلجوقي التركي نظام الملك[6].

أما في الأندلس فقد راجت الثقافة، وذلك بتعزيز الحكماء بإنشاء المعاهد العلمية في المدن والقرى من أشهر خلفائها الحكم حيث أنشا 27 مدرسة. وازدهرت جامعة قرطبة في عهده التي أسسها عبد الرحمن الثالث فأصبحت في عداد معاهد العلم، حيث قصدها الطلاب من مختلف الأقطار العربية وحتى الأوربية، واستُدعي فيها أساتذة من المشرق، منهم ابن القطوية الذي درس النحو[7].

أما في عصر النهضة الحديثة "جرت حركة البعثات الأوروبية إلى الشرق بواسطة الإرساليات وتأسست في روما وباريس وغيرها من كبريات المدن الأوربية مدارس لتعليم أبناء الشرقيين، وقد تخرج من تلك المدارس طغمة مباركة من أرباب العلم والثقافة الذين لمعوا في سماء المعرفة وكان لأقوالهم وكتاباتهم أصداء عالمية... وكانت سنة 1798م تاريخ الانطلاق الشديد في عالم التقدم والوعي، فتعددت المدارس والمطابع في مصر، وأنشئت الجامعات الكبرى، في بيروت الجامعة الأمريكية وجامعة القديس يوسف، وفي مصر الجامعة المصرية، وفي دمشق الجامعة السورية"[8].

من خلال ما سبق نستنتج أنّ ظهور الإسلام مثّل نقطة تحوّل كبرى في مسار الحياة العربية، حيث أسهم في توجيهها نحو العلم والمعرفة، مع استمرار أثر التراث السابق، ثم تعزّزت هذه المسيرة بازدهار التعليم في العصر العباسي وتطوّر مؤسساته، وتواصل هذا التقدّم عبر العصور وصولًا إلى النهضة الحديثة التي شهدت توسّعًا كبيرًا في إنشاء المدارس والجامعات وحركة العلم.

ثانيا: مفهوم الاستراتيجية

يُعدّ مفهوم الاستراتيجية من أهم المفاهيم الحديثة التي حظيت باهتمام واسع في المجال التربوي، لما له من دور فعّال في تنظيم عمليتي التعليم والتعلّم وتحقيق الأهداف التعليمية بكفاءة، وقد ارتبط هذا المفهوم في بداياته بالمجال العسكري قبل أن ينتقل إلى مجالات أخرى، من بينها المجال التربوي. وفي هذا السياق، و"إنّ مصطلح الاستراتيجية strategy مشتقة أصلا من الكلمة اليونانية بمعنى الجيش، وفي التعلم والتعليم تعني جيش الطلبة وتعامل المعلمين معهم في غرف الصف ومن مشتقات هذه الكلمة strago التي تعني في القيادة وفي المجال التربوي تعني قيادة الصف وإدارة تعلمه"[9].

فالاستراتيجية تعرف بأنّها مجموعة من الطرائق المحددة للتعامل مع مشكلة معيّنة أو لإنجاز مهمة ما، كما تُعد سلسلة من العمليات الهادفة إلى تحقيق غايات واضحة، وهي أيضًا تدابير منظَّمة لربط المعلومات والتحكّم فيها. وبذلك فهي في جوهرها خطة تُرسم للوصول إلى الهدف المنشود، وتقوم على بعدين أساسيين:

الأول: بعد تخطيطي ذهني يتم فيه التفكير والتنظيم المسبق
والثاني بُعد عملي مادي تتجسّد فيه الاستراتيجية على أرض الواقع.

ويرتكز العمل في كلا البُعدين على الفاعل الرئيس، إذ يقوم بتحليل السياق والتخطيط لأفعاله، ثم يختار من الإمكانات المتاحة ما ينسجم مع أهدافه ويكفل تحقيقه[10].

فالاستراتيجية تعني المخطط أو الطريقة المعتمدة في عمل أو مشروع ما، بتحديد الغايات والأهداف التي يجب تحقيقها بعد تطبيق هذه الاستراتيجية.

ثالثا: التعلم

التعلّم هو عملية يتمكّن من خلالها الفرد من اكتساب أساليب تساعده على إشباع دوافعه وتحقيق أهدافه، والتغلّب على ما يواجهه من مشكلات، وهو في جوهره تغيّر يطرأ على السلوك نتيجة قيام الكائن الحي بنشاط معيّن كما عرفه عبد الرحمن العسوي بأنه: "عملية نستطيع بواسطتها اكتساب الطريقة التي تساعدنا في إشباع دوافعنا وتحقيق أهدافنا والتغلب على ما يصادفنا من مشكلات، فهو عبارة عن تغير يحدث في السلوك نتيجة لقيام الكائن الحي بنشاط معين"[11].

والتعلم "عملية معرفية داخلية معدة تنطوي على العديد من العمليات مثل الانتباه والتفكير والإدراك وحل المشكلات والتذكر، ولذلك من الصعب الاستدلال على حدوث التعلم إلا من خلال الآثار والنتائج المترتبة على التغيير في السلوك الإنساني الداخلي والخارجي"[12].

ومنه فإنّ هناك أربعة مفاهيم ترتبط بالتعلم وهي:

1- يرتبط التعلّم بالخبرة ارتباطًا وثيقًا، إذ لا يتحقّق إلا من خلال اكتساب الفرد لخبرات جديدة يتفاعل معها باستمرار طوال حياته.
2- يُعدّ التعلّم تدريبًا للعمليات العقلية المختلفة، مثل التفكير والتخيّل والتصوّر وغيرها من القدرات الذهنية.
3- يمثّل التعلّم تغيّرًا في السلوك، فهو عملية عقلية داخلية لا تُلاحظ مباشرة، لكنها تُفضي إلى تغيّر تدريجي شبه دائم في سلوك الفرد، سواء كان داخليًا أم خارجيًا، وفق شروط معيّنة.
4- لا يُعزى التعلّم إلى عوامل النضج أو الوراثة أو العوامل الفسيولوجية، بل يقوم على الاكتساب والخبرة[13].

من خلال ما سبق من تعريفات نستنتج أن التعلم هو فائدة يكتسبها الإنسان من خلال خبراته في الحياة، وهو ناتج عن تغير في سلوكيات الفرد كما أنه يقوم بتدريب العقل بالتفكير والتصور وغيرها.

رابعا: مفهوم استراتيجية التعلم

إن استراتيجية التعلم تثير الطالب وتجعله يتفاعل معها باستقبال المعلومات، فتوجهه إلى ما هو مطلوب، كما أنها تستخدم الوسائل والطرق التي يتيحها المعلم للمتعلم.

تقول ريبيكا أكسفورد: "إن مفهوم الاستراتيجية أصبح مستخدما في مجال التربية بعد استبعاد محظوراته العدوانية والتنافسية وأصبح له معنى تربويا وتحول إلى استراتيجيات التعلم التي هي العمليات التي يوظفها المتعلم لتعينه في اكتساب وتخزين واستدعاء واستخدام المعلومات، وهي

أداءات خاصة يقوم بها المتعلم ليجعل عملية التعلم أسهل وأسرع وأكثر إمتاعا وأكثر فعالية وأكثر قابلية على أن تطبق في المواقف الجديدة"[14].

يتضح من خلال تعريفها أن استراتيجية التعلم أصبح مفهوما متداولًا في المجال التربوي بعد تنقية دلالاته من الطابع العدواني والتنافسي، ليكتسب بُعدًا تربويًا واضحًا، ويتمثّل فيما يُعرف باستراتيجيات التعلّم. وهي مجموعة من العمليات التي يوظّفها المتعلّم لاكتساب المعلومات وتخزينها واسترجاعها واستخدامها بفعالية، كما تعبّر عن ممارسات يقوم بها لتيسير التعلّم وجعله أكثر سرعة ومتعة وكفاءة، فضلًا عن قدرته على توظيف ما تعلّمه في مواقف جديدة.

وعرفت استراتيجية التعلم كذلك بأنها "خطة محكمة البناء، ومرنة التطبيق، يتم خلالها استخدام كافة الإمكانات والوسائل المتاحة بطريقة مناسبة لتحقيق كفاءة، وتتضمن أشكالا من التفاعل بين المتعلم والمدرس وموضوع المعرفة، فالاستراتيجية المناسبة هي التي تتطابق بين خصائص الطلبة والمعلمين وخصائص المتعلم في علاقة نظامية"[15].

فالمتعلم يضع خطة يطبقها ويستعمل فيها الوسائل المناسبة ليحقق بعد ذلك نتيجة مرضية وتكون من خلال تفاعل الطلبة والمعلم.

فإن "استراتيجيات التعلم هي الطريق الذي يسلكه الطلاب لتعلم كم هائل من المواد ابتداء من تعلم القراءة في اللغة الأم ومرورا بتعلم حل المشكلات"[16].

ومن ثمّ نستنتج: إنّ استراتيجيات التعلّم تتمثّل في مجموعة من الإجراءات والأساليب المنظّمة التي يعتمدها المتعلّم لجعل تعلّمه أكثر سهولة وفاعلية، من خلال توظيف مختلف الوسائل المتاحة له، بما يحقق النجاح المنشود، وذلك في إطار التفاعل والتعاون مع المعلّم.

خامسا: أهمية استراتيجيات التعلم

تكمن أهميتها في كونها مراحل يقوم بتتبعها الطلاب من أجل اكتساب مهارات، كما أنها تزيد من كفاءة وفاعلية عملية التعلم، وأنها تُسهّل فهم المعلومات واستيعابها، وتُنمّي قدرات التفكير لدى المتعلّم، كما تساعده على تنظيم تعلّمه وجعله أكثر فاعلية واستقلالية، وتُمكّنه من تطبيق ما تعلّمه في مواقف جديدة، مما يعزّز فرص نجاحه وتفوّقه. كما هي "خطوات يتبعها الطلاب من أجل تعزيز علمهم واستخدام استراتيجيات تعلم اللغة الملائمة ينتج عنه تقدم في البراعة وازدياد الثقة بالنفس"[17].

يقول ميرل هارمن: "أن المعلمون يرغبون في استخدام استراتيجيات تعلم فاعلة من أجل زيادة انخراط الطلاب الموهوبين والطلاب الضعفاء في العمل على حد سواء.

- جعل الطلاب المعرضين للخطر يتعلمون بطرق تنمي لديهم المسؤولية لتدبر شؤونهم بأنفسهم.
- تحديث برنامج قرائي يتلاءم مع أساليب تعليمية مختلفة.
- الحد من التصرفات السيئة داخل وخارج الصف.
- أن يستخدم الطالب مهارات تفكير عليا فيما يتعلق بما يتعلم"[18].

سادسا: استراتيجيات التعلم من خلال كتاب: "تعليم المتعلم طريق التعلم" للزرنوجي

التعريف بالزرنوجي:

يُعدّ برهان الدين الزرنوجي من علماء التربية والفكر الإسلامي في القرن السادس الهجري، وقد اشتهر بإسهاماته في مجال التعليم وآداب طلب العلم. وينتسب إلى منطقة زرنوج ببلاد ما وراء النهر، ويُعرف بكونه من أبرز المفكرين التربويين الذين تناولوا قضايا التعلّم والتعليم في التراث الإسلامي. وتجلّى اهتمامه بالجانب التربوي من خلال مؤلفه" تعليم المتعلم طريق التعلم"، الذي عالج فيه أسس التعلّم وآداب المتعلّم والمعلم، إضافةً إلى جملة من التوجيهات التربوية التي أسهمت في تشكيل الفكر التعليمي في الحضارة الإسلامية.

فهو "برهان الإسلام الزرنوجي نسبة إلى زرنوج ...الذي قال عنها ياقوت الحموي في معجمه بلد مشهور بما وراء النهر بعد خوجند من أعمال تركستان، الزرنوجي فقيه متعصب لمذهبه وتبعيته لمذهبه... لم نجد في المراجع سنة ولادة أو سنة وفاة للزرنوجي وفي الكتابات الحديثة عنه وآراءه في التعلم ذكرت سنة وفاته أنها عام 591 أو 593 أو 597هـ دون دليل، أو اكتفى أنه من أبناء القرن السادس الهجري دون تحديد"[19].

فقد اشتهر برهان الدين الزرنوجي بصفته مؤلف كتاب "تعليم المتعلم طريق التعلم"، حتى ارتبط اسمه بالكتاب ارتباطًا وثيقًا يفوق ما عُرف به كثير من المصنفين، وتُشير المصادر إلى قلّة المعلومات المتعلقة بحياته وسيرته العلمية، كما يُعدّ هذا الكتاب أبرز مؤلفاته، بل يكاد يكون العمل الوحيد المعروف له في مجالات التربية أو الفقه أو غيرها من العلوم[20].

برهان الإسلام ليس عربي الأصل لكنه ألف كتابا نفيسا عربيا أصيلا وهو كتاب "تعليم المتعلم طريق التعلم" الذي هو كتاب صغير الحجم إلا أنه يحمل في طياته معلومات ونصائح هائلة تفيد المتعلم أثناء التعلم، وتساعده على اختيار أحسن العلوم والأساتذة والشركاء وكيفية التعامل مع العلم والعلوم وتعظيمهم.

كتاب "تعليم المتعلم طريق التعلم":

اسم هذا الكتاب "تعليم المتعلم طريق التعلم"، فبهذا الاسم ذكره جماعة مترجمي المصنف من علماء الحنفية، منهم القرشي في "الجواهر المضيئة" واللكنوي في "الفوائد البهية"، وهو الاسم الذي حملته جل نسخ الكتاب الخطية، وموضوع هذا الكتاب يعرف بجلاء من اسمه، فإنه من بيان طريق التعلم، أي نعت الجادة الموصلة إلى العلم[21].

فهو كتاب يتكوّن من ثلاثة عشر فصلًا، يتناول العلم وطرق التعلّم وما يرتبط بهما من نصائح قيّمة ومفيدة للمتعلّم، حيث يقدّم تعريفًا للعلم والفقه ويبيّن فضلهما، ويؤكد على أهمية النية الصادقة في طلب العلم، وحسن اختيار العلم المناسب والمعلم الصالح والرفقة النافعة. كما يدعو إلى المواظبة والاجتهاد وعلوّ الهمة في التحصيل العلمي، ويشير إلى ضرورة اختيار الوقت المناسب للتعلّم، إضافة إلى توضيح كيفية الاستفادة من الأدب واستلهام المعارف والاقتباس منها.

تقاطع استراتيجيات التعلم الحديثة مع فصول الكتاب:

بعد عرض الكتاب والتعريف بمؤلِّفه، سنسعى في هذا المبحث إلى تناول فصوله ومقارنتها باستراتيجيات التعلّم الحديثة. ويتّضح من عنوان الكتاب منذ البداية أنّ الزرنوجي كان يستحضر في تصوّره ما يشبه مفهوم الاستراتيجيات بصيغته المعاصرة، وإن اختلفت المصطلحات والسياقات.

نجد في فصل "ماهية العلم وفضله" حيث تكلم عن فرضية العلم، حيث بدأ كلامه عن فضل العلم حيث يقول: "اعلم بأنه لا يفترض على كل مسلم طلب كل علم وإنما يفترض عليه طلب علم الحال كما يقال: وأفضل العلم علم الحال وأفضل العمل حفظ الحال"[22].

والمراد بعلم الحال: "العلم المحتاج إليه الموصل إلى النفع في المآل، ذكره الطوسي في آداب المتعلمين وهو بمعنى ما تقدم من أنه أصل الدين أي العلم الذي هو فرض عين على كل أحد، فإن من العلم ما يكون فرض عين على كل أحد ليصبح دينه به"[23].

يتوافق هذا المضمون مع مبدأ إثارة الدوافع الداخلية في استراتيجية التعلّم بالاكتشاف، وذلك من خلال إبراز قيمة العلم وتعظيم فضله. وتكمن أهمية هذا التوافق في أن المتعلم الذي لا يدرك قيمة العلم وفضله يفتقد أهم عنصر محفّز له على التعلّم وحبّ الاستكشاف.

كما يتقاطع هذا المضمون مع استراتيجية التعلّم الذاتي، من خلال مبدأ اختيار نوع الدراسة بما يتناسب مع حاجات المتعلّم. وقد قدّم الزرنوجي مفهومًا دالًا على هذا التوجّه يتمثّل في "علم الحال"، الذي يُحدَّد وفق حاجة الطالب أولًا ثم متطلبات العصر ثانيًا، وهو ما يعكس مرونة هذا التصوّر وصلاحيته للتطبيق في مختلف الأزمنة والبيئات.

يقول الزرنوجي: "شرف العلم لا يخفى على أحد، إذ هو يختص بالإنسانية لأن جميع الخصال سوى العلم، يشترك فيها الإنسان وسائر الحيوانات كالشجاعة والجرأة والقوة والجود والشفقة وغيرها سوى العلم... وإنما شرف العلم بكونه وسيلة إلى البر والتقوى الذي يستحق بها المرء الكرامة عند الله والسعادة الأبدية"[24]، أي أن العلم ينفرد به الإنسان عن غيره من المخلوقات.

كما تحدث في فصل "النية في حال التعلم" عن النية في التعلم التي يقصد بها الهدف من التعلم، حيث "يدعو المؤلف إلى خيرية التعلم التي يحددها هدف المتعلم وتعيين الهدف مرتبط بالنية ويطلب إلى المتعلم أن يكون تعلمه سبيلا لإقامة الدين للازدياد من الأمور الدينية"[25].

إن الهدف العام من التعلم هو "اكتساب المتعلم المفاهيم والمعلومات الأساسية والاتجاهات والميول والمهارات العقلية التي تعينه، ومرحلة ناضجة تسهم في تكوين شخصيته وتساعده على التكيف الناجح مع بيئته"[26].

فقد قال الزرنوجي رحمه الله في النية في حال التعلم: "ثم لا بد له من النية في زمان تعلم العلم، إذ النية هي الأصل في جميع الأفعال لقوله عيه الصلاة والسلام "إنما الأعمال بالنيات" فكم من عمل يتصور بصورة عمل الدنيا ثم يصير بحسن النية من أعمال الآخرة، وكم من يتصور بصورة عمل الآخرة ثم يصير من أعمال الدنيا بسوء النية، ينبغي أن ينوي المتعلم بطلب العلم

رضاء الله والدار الآخرة وإزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهال وإحياء الدين وإبقاء الإسلام، فإن بقاء الإسلام بالعلم ولا يصح الزهد والتقوى مع الجهل"[27].

وذكر المصنف رحمه الله "من معنى النية بالعلم أفراد ويجمع النية في العلم ما تقدم بيانه من أن نية العلم ترجع إلى أربعة فصول:

أحدها: نية رفع الجهل عن نفسه.

ثانيها: نية رفع الجهل عن غيره.

ثالثها: نية حفظ العلم وصيانته من الضياع.

رابعها: نية العمل بالعمل"[28].

يتوافق هذا المعنى مع مفهوم التعلّم بالاكتشاف من حيث اعتماد المتعلّم على قدراته العقلية والحسية للوصول إلى المعرفة، مع تنمية دوافعه الداخلية. وإذا كان المقصود في الاستراتيجيات الحديثة هو التعميم، فإن الزرنوجي قد خصّص ذلك بالنية التي تقوم على طلب رضا الله، ليصبح طلب العلم في جوهره عبادة يسعى من خلالها العبد إلى نيل رضا المعبود.

أما في فصل "**اختيار العلم والأستاذ والشريك**" فنجد أنه وعى دور المتعلم ومسؤوليته في رسم خط دراسته في انتقاء العلم الذي يدرسه والأستاذ الذي يتلقى منه والزميل الذي يشاركه تعلمه، وهذه الحرية المطلقة في التعلم كانت سمة من سمات التعلم والتعليم عند المسلمين قديما إلا أن التربية الحديثة كفت المتعلمين مسؤولية البحث في تفاصيل ذلك ولكن بقي للمتعلم حرية اختيار مؤسسة التعليم والتخصص"[29].

يقصد باختيار العلم، انتقاء التخصصات التي يحتاجها المتعلم واختيار ما هو أنفع له وأجدى، أما اختيار الأستاذ فيعني التوجّه نحو المعلم الأكفأ والأعلم والأكثر خبرة، في حين يرتبط اختيار الشريك باختيار الزميل المستقيم والجاد في طلب العلم، الذي يشارك المتعلم مسار التعلم ويسهم في تطويره.

قال المؤلف رحمه الله: "وينبغي لطالب العلم أن يختار من كل علم أحسنه وما يحتاج إليه في أمر دينه في الحال، ثم ما يحتاج إليه في المآل ويختار العتيق دون المحدثات، أما اختيار الأستاذ: فينبغي أن يختار الأعلم والأورع والأسن"[30].

يبرز في هذا السياق مبدأ حرية المتعلّم ومسؤوليته في اختيار العلم والمعلم، وهو ما يتقاطع مع استراتيجية التعلّم الذاتي التي تقوم على استقلالية الطالب وحريته في التعلّم، بهدف تحقيق أهدافه الشخصية وتطوير قدراته وفق اختياراته الذاتية.

عرف خيري إبراهيم التعلم الذاتي بأنه: "ذلك الأسلوب الذي يقوم فيه المتعلم باكتساب المعارف والمعلومات والمهارات بنفسه مستخدما الكتب والأدوات التعليمية وغيرها من الوسائل التعليمية وهو الذي يختار نوع الدراسة والأسلوب الذي يحقق له تعلما أفضل والوقت المناسب وهو المسؤول عن نتائج تعلمه وعن القرارات التي يتحصل عليها"[31].

تعتمد استراتيجية التعلّم الذاتي على حرية المتعلّم ومسؤوليته في اختيار ما يرغب في دراسته من علوم ودروس، إضافة إلى تحمّله نتائج قراراته التعليمية. كما يتقاطع هذا الطرح مع استراتيجية

التعلّم التعاوني التي تقوم على التعلّم ضمن جماعة أو مع شركاء، وقد أشار المؤلف إلى هذا المعنى من خلال أهمية اختيار الشريك، انطلاقًا من كون الإنسان بطبعه كائنًا اجتماعيًا يحتاج إلى الآخرين في مختلف شؤون التعلم والحياة.

والتعلم التعاوني فيه دلالة على ذلك فهو يتم بواسطة "تكوين علاقات اجتماعية ودية بين الأعضاء وفيه ينخفض معدل القلق عن المتوسط ويزداد الشعور بالأمان والحب بين الأفراد"[32].

أما في فصل "الجد والمواظبة والهمة" الذي هو فصل في النشاط والاستعداد حيث يرى الزرنوجي أنّ "العلم هدف عظيم وسلوك طريقه أمر شاق فلا بد للمتعلم من الحيوية الدائمة والحركة المستمرة وممارسة كل نشاط من أجل التعليم"[33].

فهنا له علاقة باستراتيجية التنظيم التي يكون فيها المتعلم نشيطا فيعمل بحيوية لأن هذه الاستراتيجية "قد تتألف من إعادة تجميع الأفكار أو المصطلحات أو تصنيفها وتجميعها"[34]، وهذا كله يعتمد على الجد الذي هو الاجتهاد للوصول إلى الهدف الذي يسعى إليه الطالب والمواظبة هي المداومة.

ونجده في فصل **"بداية السبق وقدره وترتيبه"** قد تحدث عن الفهم والتكرار فيقول: "ولا يكتب المتعلم شيئا لا يفهمه، فإنه يورث كلالة الطبع ويضيع أوقاته، وينبغي أن يجتهد في الفهم عن الأستاذ بالتأمل والتفكر وكثرة التكرار، فإنه إذا قل السبق وكثر التكرار والتأمل يدرك ويفهم، إذا تهاون في الفهم ولم يجتهد مرة أو مرتين يعتاد ذلك فلا يفهم الكلام اليسير"[35].

هنا يوجد تقاطع مع استراتيجية الفهم التي: "تتضمن ربط الحقائق والخبرات أو المعرفة الجديدة بالمعلومات التي تم تعلمها كما يتضمن بناء نسيج للمعرفة لبناء كل متكامل"[36].

فقد جمع في هذا الفصل بين استراتيجيتين، وهما استراتيجية السرد والتسميع التي تعتمد على تكرار المعلومات وإعادتها من أجل تذكرها وحفظها التي هي "مجموعة من المبادئ والتقنيات المستخدمة من أجل تنظيم المعلومات في الذاكرة وتحسين عملية استدعائها وكذلك تساهم في عملية ربط الأفكار ببعضها"[37].

وتقوم استراتيجية الفهم على التأمل والتركيز من أجل اكتساب معلومات جديدة وبناء معرفة عميقة. ويؤدي الجمع بينها وبين استراتيجية الحفظ إلى تحقيق توازن يحدّ من سلبيات كل منهما، إذ إن الاقتصار على الحفظ دون فهم لا يضمن تعلّمًا فعّالًا، كما أن الاكتفاء بالفهم دون تثبيت بالحفظ يؤدي إلى تلاشي المعرفة تدريجيًا.

أما في فصل "وقت التحصيل" الذي جعله المؤلف خاصا باختيار الوقت المناسب للتعلم، أي في الزمن الذي ينبغي أن يشتغل فيه طالب العلم، وهذا الفصل يرتبط باستراتيجية تنظيم العمل في الزمان التي تعتمد على تنظيم الوقت.

وقد تحدث عن الحفظ في فصل "فيما يورث الحفظ وفيما يورث النسيان" الذي هو عملية ملازمة للتعلم فاهتم الزرنوجي به ووضع له فصلا خاصا يقول: "وأقوى أسباب الحفظ الجد والمواظبة وتقليل الغذاء وصلاة الليل وقراءة القرآن من أسباب الحفظ"[38].

فقد خصص هذا الفصل في ذكر مساعدات الحفظ من قراءة القرآن والصلاة كما ذكر أغذية تساعدنا على الحفظ منها العسل والزبيب، وفي هذا الفصل تقاطع مع استراتيجية الحفظ.

تجلّى التقاطع بين استراتيجيات التعلّم الحديثة وفصول كتاب ""تعليم المتعلّم طريق التعلّم في عدة جوانب أساسية، إذ يشترك الطرفان في الاهتمام بفعالية التعلم وتنظيمه. فالكتاب يؤكد على النية الصادقة، واختيار العلم والمعلم، والاجتهاد والمواظبة، وهي مبادئ تقابل في التربية الحديثة مفاهيم الدافعية، والتوجيه التربوي، والتعلّم الذاتي.

كما أن دعوته إلى اختيار الوقت المناسب للتحصيل تتوافق مع استراتيجيات إدارة الوقت وتنظيم التعلم، في حين أن التركيز على الأدب والاستفادة منه ينسجم مع استراتيجيات التعلم القائم على النمذجة والتقليد واكتساب الخبرة.

وبذلك يظهر أن الأسس التي طرحها الكتاب تمثل امتدادًا مبكرًا لمفاهيم حديثة في استراتيجيات التعلم، رغم اختلاف السياق الزمني والتربوي، كما يبرز أيضًا مبدأ التعلم الذاتي من خلال منح المتعلم حرية اختيار ما يتعلمه ومن يتعلم منه، إلى جانب أهمية التعلم التعاوني عبر الشراكة مع الآخرين في مسار التعلم. كما يتقاطع التركيز على الاجتهاد والمواظبة مع استراتيجيات التنظيم والانضباط الذاتي التي تساعد على تحقيق التعلم الفعّال.

وفي السياق نفسه، يتجلى الاهتمام بعمليات الفهم والتكرار والحفظ، بما يعكس الجمع بين استراتيجيات معالجة المعلومات وتنظيمها وتثبيتها في الذاكرة، إضافة إلى التأكيد على أهمية إدارة الوقت وتنظيمه بما يخدم عملية التعلم ويزيد من فعاليتها واستمراريتها.

خاتمة:

1. يُعتبر كتاب "تعليم المتعلّم طريق التعلّم" عملًا موجزًا غنيًّا بالمضمون، قدّم فيه الزرنوجي ثلاثة عشر فصلًا تضمّنت نصائح وتوجيهات للمتعلّمين.
2. يتقاطع مفهوم الاستراتيجية مع ما جاء في عنوان الكتاب طريق التعلّم، حيث تظهر العديد من نقاط الالتقاء بين مضامينه واستراتيجيات التعلّم الحديثة.
3. أولى الزرنوجي أهمية كبيرة للعلم وأهله، كما شدّد على دور المعلّم وأهمية النية في طلب العلم.
4. قدّم الزرنوجي مفهوم "علم الحال" الذي ينسجم مع استراتيجية التعلّم الذاتي، حيث يرتبط بحاجات المتعلّم وذاتيته، كما دعا إلى تعظيم العلم وإدراك فضله بما يثير الدوافع الداخلية للتعلّم، وهو ما يتقاطع مع استراتيجية التعلّم بالاكتشاف.
5. أكّد على حرية المتعلّم في اختيار العلم والأستاذ والشريك، وهو ما ينسجم مع التعلّم الذاتي من حيث الاستقلالية والمسؤولية، ويتقاطع أيضًا مع التعلّم التعاوني القائم على العمل مع الآخرين.
6. دعا إلى الجدّ والمواظبة في التعلّم، وهو ما يتوافق مع استراتيجيات التنظيم والانضباط أثناء عملية التعلّم.
7. كما أوصى بالاعتماد على الحفظ والتكرار، وهو ما ينسجم مع استراتيجيات السرد والتسميع في التعلّم الحديث.

المصادر والمراجع:

1- برهان الإسلام الزرنوجي، تعليم المتعلم طريق التعلم، تح: مروان قباني، المكتب الإسلامي، ط1، 1981م.
2- جابر عبد الحميد جابر، استراتيجيات التدريس، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1991م.
3- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، تعليق شوقي ضيف، دار الهلال، مصر.
4- حسين محمد أبو الرياش، سليم محمد شريف، عبد الحكيم الصافي، أصول استراتيجيات التعلم، دار الثقافة، ط1، 2009م.
5- حسين طه، خالد عمران، أساليب التعلم، دار العلم والإيمان، كفر الشيخ، ط1، 2009م.
6- حنا الفاخوري، الموجز في الأدب وتاريخه، دار الجيل، بيروت، ط2، 1411هـ-1991م، ج3.
7- ريبيكا إكسفورد، استراتيجيات تعلم اللغة، تر: محمد دعدور، دار المسيرة، ط1، 1436هـ-2015م.
8- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، ط2، ج3.
9- صالح بن عبد الله العصيمي، شرح تعليم المتعلم طريق التعلم، الكتاب الثالث 1434/6/28، النسخة الإلكترونية (1)، موقع التفريغ للدروس العلمية و البحوث الشرعية، www.attafreegh.com
10- عبد الرحمن العسوي، سيكولوجية التعلم والتعليم، دار أسامة، عمان، 2011م.
11- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2004م.
12- عدنان يوسف العتوم وآخرون، نظريات التعلم، دار المسيرة، ط1، 1436هـ-2015م.
13- منير الدين أحمد، تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم، تر: شامي الصقار، دار المريخ، الرياض، 1401هـ-1981م.
14- وليم عبيد، استراتيجيات التعليم والتعلم، دار المسيرة، ط1، 1429هـ-2009م.
15- يوسف قطامي، استراتيجيات التعلم والتعليم المعرفية، دار المسيرة، ط1، 2013م.

الهوامش:

(1) منير الدين أحمد، تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم، تر: شامي الصقار، دار المريخ، الرياض، 1401هـ-1981م، ص 40.
(2) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، ط2، ج3، ص 98.
(3) نفسه، ص100.
(4) ينظر: نفس المرجع السابق، ص 104-105.
(5) منير الدين أحمد، تاريخ التعليم، ص 71-72.
(6) ينظر جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، تعليق: شوقي ضيف، دار الهلال، مصر، ج 3، ص12.
(7) ينظر حنا الفاخوري، الموجز في الأدب، ج3، ص33.
(8) نفسه، ج4، ص15-14.
(9) يوسف قطامي، استراتيجيات التعلم والتعليم المعرفية، دار المسيرة، ط1، 2013م، ص32.
(10) ينظر إلى عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2004م، ص 53.
(11) عبد الرحمن العسوي، سيكولوجية التعلم والتعليم، دار أسامة، عمان، 2011 م، ص11.
(12) عدنان يوسف العتوم وآخرون، نظريات التعلم، دار المسيرة، ط1، 1436هـ-2015م، ص25.

(13) ينظر: نفس المرجع السابق، ص28.
(14) ريبيكا إكسفورد، استراتيجيات التعلم، ص22-23.
(15) يوسف قطامي، استراتيجيات التعلم والتعليم، ص44.
(16) ريبيكا أكسفورد، استراتيجيات التعلم، ص14.
(17) نفسه، ص13.
(18) حسين محمد وآخرون، أصول استراتيجيات التعلم، دار الثقافة، ط1، 2009م، ص20.
(19) مروان قباني في تحقيقه، تعليم المتعلم طريق التعلم، برهان الإسلام الزرنوجي، المكتب الإسلامي، ط1، 1981م، ص 18-24.
(20) ينظر نفس المرجع، ص22-23.
(21) صالح بن عبد الله العصيمي، شرح تعليم المتعلم طريق التعلم، ص3.
(22) برهان الإسلام الزرنوجي، تعليم المتعلم طريق التعلم، ص59.
(23) صالح بن عبد الله، شرح تعليم المتعلم للزرنوجي، ص15.
(24) المرجع السابق، ص 60.
(25) مروان قباني في تحقيقه تعليم المتعلم طريق التعلم، ص32.
(26) وليم عبيد، استراتيجيات التعليم والتعلم، ص54.
(27) الزرنوجي، تعليم المتعلم طريق التعلم، ص 66.
(28) صالح عبد الله، شرح تعليم المتعلم للزرنوجي، ص21-22.
(29) برهان الإسلام الزرنوجي، تعليم المتعلم طريق التعلم، ص 32.
(30) نفسه، ص71-73.
(31) حسين طه، خالد عمران، أساليب التعلم، ص16.
(32) نفس المرجع السابق، ص157.
(33) الزرنوجي، تعليم المتعلم طريق التعلم، ص33.
(34) جابر عبد الحميد جابر، استراتيجيات التدريس، ص 325.
(35) المرجع السابق، ص101-102.
(36) يوسف قطامي، استراتيجيات التعلم والتعليم المعرفية، ص445.
(37) نفسه، ص345.
(38) الزرنوجي، تعليم المتعلم طريق التعلم، ص130.